نظرات في العزلة بين الأدب والفلسفة

Looks at the isolation among literature and philosophy

بختي البشير *

جامعة محمد بوضياف المسيلة، (الجزائر)، bachir.bakhti@univ-msila.dz

تاريخ الارسال 2023/01/08 تاريخ القبول 2023/02/06 تاريخ النشر2023/03/20

ملخص:

يولد الإنسان وهو محاط بذويه وأهله، وهذا ما يجعله مع الوقت محبا للاجتماع وكارها للعزلة. وهناك الكثير من الأفراد والجماعات لا يستطيعون العيش بعيدا عن الآخرين، لاعتقادهم بأن السعادة إنما تكون بين الناس. غير أننا نجد أنفسنا في كثير من الأحيان في عزلة مفروضة أو في عزلة طوعية. وأكثر الناس اعتزالا، هم أصحاب الفكر وعلماء الدين والثقافة والأدب والفلسفة وكل من له صلة بالعلم والفن، ذلك لأن طبيعة عملهم تفرض عليهم هذه الخلوة.

ويسعى البحث إلى إلقاء الضوء على تجارب العزلة عند الفلاسفة والأدباء، وكيف تعامل الأدب مع العزلة؟ ومن النتائج التي توصلنا إليها، أن أبطال الأعمال الأدبية الذين اخترناهم في البحث، قد تغلبوا على عزلتهم بوسائل متنوعة؛ كالتأمل، والعبادة، والقراءة والأعمال اليدوية وغير ذلك من الوسائل المتعددة، إلى جانب ذلك، فالعزلة تسهم في صياغة المعرفة الإنسانية.

الكلمات المفتاحية: العزلة، المعرفة، الفلسفة، الأدب، الزمن.

Abstract:

people are born surrounded by their family and friends, and this is what makes them, over time, hating isolation. There are many individuals and groups who cannot live apart from others, because they believe that happiness is only among people. The research seeks to shed light on the experiences of isolation among philosophers and writers, and how did literature deal with isolation? One of our findings is that the heroes of the literary works that we have chosen in the research have overcome their isolation by various means; Such as meditation, worship, reading, handicrafts, and several multiple means. In addition, solitude / isolation contributes to the formulation of human knowledge.

Keywords: isolation; Knowledge; Philosophy; literature; time.

1. مقدمة:

تعني العزلة، في أبسط معانيها، الانقطاع عن الأهل والأصحاب والناس ما يجعل الإنسان المنعزل في مواجهة نفسه، حيث يعاني من الوحشة والخوف والشعور بالحزن والإحباط وعدم الأمان والضعف إلى جانب الأمراض النفسية التي قد تصيبه كالجنون وحب العظمة. والحقيقة، أن العزلة ليست دائما مذمومة، فهناك من البشر من يضع نفسه في عزلة طوعية، ليجد متعته وفائدته فيها.

* المؤلف المرسل

وقد اهتم الأدب بالعزلة، وعالجها في إطارها السردي، فنسج الكُتاب في رواياتهم وقصصهم صورا عديدة لحياة العزلة وكيف تكيّف أبطالها مع واقعهم الجديد.

ومن الأعمال الأدبية التي اهتمت بالعزلة؛ قصة "حي بن يقظان" "لابن طفيل"، ورواية "روبنسن كروزو" "لدانيال ديفوي"، ورواية الغريب "لألبير كامو"، وقصة الرهان "لأنطون تشيكوف". هذه الأعمال التي نركز عليها في البحث ونعمل على قراءتها وتحليلها في ضوء ما توصلت إليه الدراسات السابقة التي تناولت مشكلة العزلة. ومن أهم هذه الدراسات: كتاب العزلة للحافظ أبي سليمان الخطابي البستي، وكتاب فن العيش لأرتور شوبنهاور، وكتاب العزلة لنيقولاى بردياائف.

وفي العادة، يلجأ المثقفون والأدباء والفلاسفة إلى العزلة، بسبب ما تفرضه طبيعة عملهم، إلى جانب ما يقوم به الاستبداد السياسي من خنق للحريات وترهيب لأصحاب الآراء المخالفة، ونتيجة لذلك يتم عزلهم وتحييدهم. ويؤدي صراع الهوايات واختلاف الثقافات وتباعد الأجيال إلى ظاهرة الاغتراب والانزواء عن الواقع الاجتماعي، غير أن هناك من يسعى للاختلاء بنفسه، لأن ذلك يكون طبيعة في بعض البشر.

وقد وجد الأدباء في الانصراف إلى التأمل والتعلم والقراءة والأعمال الفنية والأعمال اليدوية وسائل لتجاوز أبطال رواياتهم وقصصهم عواقب العزلة.

ويسعى البحث إلى الإجابة على جملة من الأسئلة، لعل أهمها ما يلي: كيف واجه الإنسان ذاته المنعزلة في السرد الأدبي؟ وكيف يسير خط الزمن داخل العزلة؟ وما هو دور القراءة في تجاوز الإنسان لعزلته؟

ولإعداد هذا البحث، استعنت بالمنهج التحليلي، بالإضافة إلى المنهج التفكيكي، الذي يساعد على قراءة النصوص الروائية واستنطاقها.

2. العزلة في الفلسفة والأدب:

تتعدد حالات العزلة وتتنوع في الحياة الإنسانية، وذلك بحسب الوضعيات التي يكون فيها الإنسان. وتعني العزلة في أبسط معانيها أن يختلي الإنسان بنفسه عن الآخرين، كما يمكن أن ينعزل الإنسان بنفسه وهو وسط الجموع. ويأخذ مفهوم العزلة عند "حنة آرنت" شكلا آخر، حيث ترى "أن العزلة تتحقق عندما لا يكون الشخص مع ذاته ولا بصُحبة آخرين وإنما مشغولا بشئون العالم"[1].

ويعد آرتور شوبنهاور من أكثر المدافعين عن العزلة، فقد عاش معظم حياته يقلب صفحات الكتب، بعيدا عن المجتمع الإنساني. وقد وصل في عزلته الطوعية إلى نتيجة مهمة دعته إلى أن يُقبل على عزلته ولا يخشاها، يقول: "إن كل واحد منغلق في وعيه الذاتي، وقلما يرجو سندا أو نجاة أو خلاصا يأتيه من خارجه"[2]. لذلك هرب شوبنهاور من المجتمع، الذي رأى فيه علامات الانحطاط الأخلاقي حيث أدرك أن مجتمعه لا يمكن أن يقدم له شيئا ينتفع به، فقرر أن يختلي بنفسه ما تبقى له من عمر. وهو الذي ترك له والداه ثروة أغنته عن الاختلاط

بالناس، وقد تمكن من أن يسعد بعزلته ويبدع كتاب فن العيش الحكيم الذي يُعد خلاصة تجربته عن العزلة وحكمته في الحياة.

ويحدثنا "بول أوستر" عن عزلة والده الذي طلّق أمه، وانتهج عزلة خاصة، أرغم نفسه عليها محاولا الهروب عن عائلته وعن الناس، حتى يتمكن من أن يفعل ما يحلو له، "عزلة لم يكن مغزاها أن يحيا وحيدا؛ بل عزلة للتخلي، بمعنى ألا يضطر للنظر إلى نفسه، أو ليس عليه أن ينظر نفسه منظورا إليها بعيون الآخرين"[3]. كان هدف والده أن يبعد الأنظار عنه خوفا من التأنيب. وقد أثرت هذه العزلة عليه إلى درجة أن بدأ يفقد مع الوقت لغته، حيث أن "طريقته في الحديث: تدل على أنه يبذل جهدا هائلا ليجذب نفسه خارج عزلته، كأنما صوته قد غطاه الصدأ، كأنه فقد عادة الكلام. يُهمهم كثيرا ويتوقف، ويتنحنح، كأنه يريد أن يبصق في وسط الجملة"[4].

بينما فضل "وول سوينكا" الأديب والمناضل الإفريقي العزلة في سجنه، على أن يمد يده للانقلابيين في بلده، يقول: "إنني في حاجة شديدة للبقاء وحدي مع أفكاري"[5]، وحتى يتمكن من السيطرة على مشاعره وتثبيت مواقفه مما يحدث في بلده. فهو بحاجة "إلى عقل شخص آخر، لكي يستمر بالاتفاق مع عقله، كذلك فإنه بحاجة إلى لحظات خالية من التفكير"[6]، وليس هذا العقل إلا الكتب التي يقرأها، فيستمد منها عافيته وقوته وإرادته في المقاومة.

كما اتسمت تجربة العزلة "لإميل سيوران" بالفرادة، رغم أن حياته في مجملها تميزت بالحركة، فقد قضى معظم حياته، يجوب أوروبا على دراجته الهوائية، بالإضافة إلى تصفحه للكتب. وقد نشأ متمردا منذ طفولته على الوجود وقيم الحياة العامة، وكانت كتاباته تشي بالكآبة والحزن والسوداوية. وفي عزلته اختار أن يكون في صميم الضجيج اليومي، ذلك لأنه يرى أن العزلة الحقيقية، إنما تكون في وسط الجموع، وليست العيش بعيدا عن الآخرين. وقد انتهت خلاصة عزلته إلى أنه لم يعد يهتم بالآخرين وأنه يفضل الصمت، يقول: "أن نصل إلى الدرجة أن لا نُقدّر غير الصمت، فذلك يعني تحقيق العبارة الجوهرية التي مفادها العيش على هامش الحياة... لا بد أن يكون حضور الآخرين مثيرا للسخط وتُقززك تعقيدات المشاكل إلى درجة أنك لن تهتم إلا بالصمت وصراخاته داخلك"[7]، اعتبر أن مشاركة الحياة مع الناس، تنتهي بإحالة الفرد إلى هامش الحياة، إلى جانب ذلك فإن هناك سببا غير معروف يجعلنا غير منسجمين مع مجتمعاتنا، "بسبب أي لعنة يشعر بعضهم، أنهم غير مرتاحين على الإطلاق في أي مكان كان؟ لا تحت الشمس، لا مع الآخرين، ولا بدونهم"[8].

وتبدو العزلة في التراث العربي مقبولة إلى حد ما، فرغم أن الإسلام شدد على مظاهر الأخوة والتآلف، إلا أنه حبب للنفس أن تخلو بذاتها مرة بعد مرة للتأمل أو العبادة أو المحاسبة. كما أن العزلة تحفظ صاحبها من صداقة الأشرار، وتجدد العزم وتنير البصيرة، يقول أبو سليمان البستي: "الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، ومعرفتهم مكسبة لقرين السوء، فكن للناس بين المنقبض والمقارب، فإن خير الأمور أوساطها"[9]. ويعتبر أبو حيان

التوحيدي العزلة؛ بأنها فعل محمود وليس مذموما كما تفهمه العامة من الناس، غير أنها تحتاج إلى الكفاية المادية حتى تدوم عزلتها، يقول: "والعُزلة محمودةٌ إلا أنها محتاجة إلى الكفاية"[10].

3ـ العزلة بين المعرفة الروحية والمعرفة المادية:

ألف ابن طفيل، وهو أحد فلاسفة الأندلس في القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر ميلادي)، قصة حي بن يقظان، حيث تجري أحداثها في عزلة تامة عن البشر. فبعد أن تلتقط الغزالة الطفل التائه "حي بن يقظان"، وتقوم برعايته، حتى يكبر ويصير قادرا على إعالة نفسه والدفاع عنها. ليداهم المرض الغزالة ويودي بحياتها. وسرعان ما تستيقظ حواس "حي" لينشط تفكيره، إذ يحاول في البداية أن يجد الدواء للغزالة، ثم يفكر في خلود روحها بعدما لاحظ فناء جسدها، ليمتد تفكيره بعد ذلك إلى البحث عن الله. ولم يكن "حي" يهتم بتمضية وقته بين أفراد جماعته من الحيوانات، ويبحث عن أكله وشربه ويوفر حاجيات يومه، بقدر ما كان يهتم بالمشكلة الروحية التي ملأت عقله وقلبه. وكان بذلك سعيدا، يعيش يومه ولا يلتفت لأي شيء، يقول نيقولاي برديائيف: "تستتبع العزلة من الناحية الأنطولوجية الحنين إلى الله، باعتباره ذاتا وباعتباره أنت، والعامل الإلهي هو وحده الذي يستطيع أن ينتصر على العزلة وأن يجعل الإنسان مدركا للشعور ومتوخيا غاية جديرة بوجوده"[11]. لا شك أن البحث عن الله عز وجل، جعله يزهد عن أموره المادية ويرضى بالقليل منها.

بعدما أدرك "حي" بحواسه وعقله، أن لهذا الكون مدبرا وخالقا. اتصل بالبشر وتعلم لغتهم وسعى للاندماج معهم. غير أنه اكتشف بأن حياتهم فاسدة، فعاد أدراجه إلى الغابة، لينتهي به المطاف إلى حيث بدأ حياته الأولى. حينها سمع رجل يُدعى "أسال" عن اعتزال "حي "، فأراد أن يرتحل إليه ويصاحبه في عزلته، "سمع أسال عن الجزيرة التي ذكر أن حي بن يقظان تكون بها، من الخصب والمرافق والهواء المعتدل، فأجمع أن يرتحل إليها، ويعتزل الناس بقية حياته"[12]. وإذا كان "حي" قد عرف الله من ذاته، وتمكن من إثبات وجود الخالق وذلك من دون أن يساعده أحد، فإن "أسال" أراد أن يسلك طريق "حي" في عزلته ليتمكن هو الآخر من تنشيط فكره. حيث تعمل العزلة على تطور وعي الفرد وتأمُّل أفعاله، ثم إن "الإنسان لا يدرك شخصيته وأصالته وتفرده وتميزه عن كل شخص وعن كل شيء، إلا عندما يكون وحيدا"[13]، بالإضافة إلى أن العزلة تبعد صاحبها عن الناس وعن صخبهم وعن أحاديثهم الاجتماعية التي لا طائل منها وتحيله إلى الموضوع الذي يريد معالجته. وقد كان "أسال" مستعدا إلى أن يحتمل عزلته المختارة، "تعلق "أسال" بالعزلة، ورجع القول فيها لما كان في طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة والغوص على المعاني"[14]، لأن "أسال" لا يريد أن يتمسك بظاهر الشريعة وقشورها،كما يفعل أهل زمانه وإنما رغب في الإيمان الحقيقي، الذي يتحقق بالعزلة والتأمل والتدبر والتعمق في معرفة مظاهر الوجود التي تحيله إلى معرفة الخالق معرفة حقيقية.

ونتيجة لذلك فقد تميز الشرق، أكثر من غيره من الأمم الأخرى، بحبهم للعزلة. وكان غرضهم في ذلك، البحث في المسائل الروحية أكثر من بحثهم عن الأمور المادية. وقد أدرك "ديفيد هنري ثورو" وهو أحد الغربيين

الذين جربوا العزلة وأهميتها في استعادة النشاط الروحي والعقلي، يقول: "كنت أجلس في مدخلي المشمس منتشيا في أحلام اليقظة، وسط الأشجار في عزلة وهدوء ... فطنت إلى ما يعنيه الشرقيون بالتأمل ونبذ الأعمال. وقد كانت هذه الأوقات أفضل من أي عمل يدوي قد أقوم به"[15].

وقد وجد كلا من "حي" و"أسال" في عزلتيهما سبيلا لانطلاق أفكارهما العظيمة والتفكير خارج الصندوق كما يقال، وهي لحظة انفصال حقيقية عن المجتمع، وفرصة للتخفف من الجانب المادي للحياة ورؤية الواقع كما هو من دون تزيين ولا تحريف.

أما في رواية "روبنسن كروزو" للكاتب دانيال ديفوي، فبطلها ما إن يصل إلى الجزيرة المعزولة، حتى يبدأ في استكشافها ومعرفة ما يمكن أن يستفيد منها ويتجنب ما يمكن أن يهدد وجوده، يقول: "كنت ـ حينئذ ـ أجهل كل شيء فِي تلك الأرض، فلم أكن أعرف: هل قذفتني الأمواج إلى جزيرة أم إلى قارة مُوحشة؟ أم إلى مكان أمين مطمئن، أَم مخوف مرهوب؟ أم إلى أرض مأهولة، يقطنها المتحضرون، أم الوحوش المفترسة؟"[16] ومنذ أن وطئت قدما روبنسن أرض الجزيرة المعزولة، حتى فكر فيما يبقيه على قيد الحياة "وظللت أفكر في بناء البيت الذي أشيده، ولم أدري: هل أحفر كهفا أم أقيم خيمة؟ ثم قر رأيي على أن أجمع بينهما"[17].

ثم بعد ذلك قضى "روبنسن" معظم وقته في البحث عن ما يؤمن به حاجات يومه من الغذاء والماء، وذلك إما من خلال الصيد أو البحث عن ما تجود به هذه الجزيرة المجهولة، يقول: "لم أكف عن العمل في كل يوم إلا في أوقات قليلة، كنت أخرج ـ في أثنائها ـ مرة أو مرتين في كلّ يوم، لأروِّح عن نفسي من عناء العمل، أو لأصطاد بعض الحيوان لغذائي، أو لأرتاد أنحاء الجزيرة المجهولة"[18].

وقد هداه تفكيره العميق إلى أن يستنبت البذور ويراكم الطعام، حتى يشعره ذلك بالأمان، يقول: "وما مرت علي أربع سنوات حتى أصبح عندي ـ من الشعير ـ ما يكفي لغذائي وزرع حقل جديد"[19].

وبذل "روبنسن" جهدا كبيرا، أثناء وقت فراغه، واستطاع أن يوفر قوت يومه، بل وتعداه إلى أكثر من ذلك حين استطاع أن يوفر الغذاء والمحاصيل لأشهر.

ومع أن "روبنسن" لم يكن يخلو بنفسه كثيرا، لأنه كان مشغولا بحل المشكلات التي تعترضه في حياته، إلا أنه بعد أن استكمل مرحلة بناء البيت وصناعة الأدوات وزراعة المحاصيل وجمع الغذاء وتربية الحيوانات، تاقت نفسه، بعد ذلك، إلى الاجتماع بالناس، فلم يجد غير الببغاء وسيلة يستخدمها لتعوضه عن البشر، تكون أنيسا له في وحشته بعد أن دربها على حفظ بعض الكلمات والجمل التي رغب في سماعها، يقول: "أخذت "الببغاء معي إلى الكهف، حيث عشت زهاء عام في عزلة السجين ولم يكن ينغص علي صفائي وسعادتي في هذِهِ الجزيرة، إلا أنها مقْفرة عازِبة ليس بِها أنيس"[20]، وذات يوم و"روبنسن" مستغرق في النوم إذا به يسمع هذه الكلمات: «روبنسن! إيه يا روبنسن! ها أنت ذا يا روبنسن! مسكين أنت يا روبنسن! أين أنت؟ وأين كنت؟ وكيف تجدك يا روبنسن كروزو؟»[21].

لم يكن "روبنسن"، يشتكي من عزلته، لأنه كان مشغولا طيلة وقته في التفكير بالأمور المادية التي تصلح بها حياته، "فالغبي في عزلته يئن تحت وطأة بؤسه الشخصي، بينما الألمعي الموهوب يؤثث عالمه الخاص والصغير حتى ولو كان في الأماكن المقفرة لتدب الحيوية والنشاط فيها. ففي العزلة، يختزل كل واحد منا في ما عنده وفي ما يجده بداخله"[22].

لقد هدته عزلته في هذه الجزيرة إلى استثمار وقته وتوظيف خبرته في التغلب على جميع المشكلات التي اعترضته. بدل الإنصات إلى ذاته المنحبسة في هذه الجزيرة، يقول: "وقد أتقنت كثيرا من الصناعات، وبرعت فيها براعة نادرة، ونجحت في صناعة الفخار وعمل السلال"[23].

اهتم "روبنسن" أثناء عزلته في الجزيرة المجهولة بالجانب المادي للحياة، ولم يهتم بالجوانب الروحية، فهو لم يبحث عن الله مثلا، ذلك لأن الفكر المادي قد طغى على الفكر الروحي، فلم يترك مجالا للفراغ الروحي أن يظهر. وكلما تمكن الفكر المادي من السيطرة، إلا ومنح الفرد نوعا من الأمان، وهذا ما حدث بالفعل مع "روبنسن"، حينما تمكن من توفير حاجياته المادية، مما يعني أن الفكر المادي هو منتج ويعد بالهيمنة والثروة وتحقيق نوع من الرضا والسعادة.

4 ـ الزمن في العزلة بين الانجاز والتمدد والانحصار:

يُعد الزمن من العناصر المهمة التي تدخل في تشكيل العزلة، ويختلف تسييره في الأعمال الأدبية التي اخترناها، ما بين الانجاز والتمدد والانحصار.

يبدو أن الزمن في قصة "حي بن يقظان" لا وظيفة له، فهو زمن مفتوح غير محدد إزاء التجربة الروحية التي خاضها البطل، فالكاتب ابن طفيل لم يشر نهائيا إلى أن "حي" اعتمد على الزمن في بحثه عن الله، ذلك لأن "حي" لم يتغلب على كآبة الشعور بصنع طاولة، بل ببناء الأفكار واكتشافها. إنه عالم لا يتحدد فيه الزمن لمصلحة شيء ما"[24]. وهذا يعني أن عالم الأفكار يتطلب وقتا طويلا لإدراكه والبناء عليه، بل إنه يمثل الزمن الذي احتاجته البشرية لتكتشف العلوم والمعارف والفلسفات وتضع القوانين والقواعد والنظريات لفهم الوجود.

بينما نجد في رواية روبنسن كروزو، أن الارتباط بالزمن والاعتماد عليه كان مهما في أحداث الرواية، وكان له تأثير كبير في انجاز البطل لأعماله ومهماته. فمنذ أن وصل إلى الجزيرة المجهولة، حاول أن يقيد الزمن ليرتب حياته وفق أشهر السنة وفصولها، وأن ينجز أعماله وفق ترتيب زمني معين. فقد عرف موعد وقت الزرع ومعرفة وقت الحصاد، كما أنه جلب حاجياته المتبقية من السفينة على أساس معرفة موعد المد والجزر، يقول "روبنسن": "كنت شديد اليقظة في مراقبة الفصول وحسبانِ أيام السنة؛ حتى لا أُفاجأ بالأمطار. وقد أكسبتني المرانة خبرة نادرة بالزراعة، ونجحت أعمالي نجاحا باهرا"[25]. لقد كان الاعتماد على الزمن في رواية روبنسن أساس نجاح البطل في إنقاذ نفسه، وأحد أهم العوامل التي نجا بسببها. ثم إن مواصلته للعمل اليومي قد أبعده عن كآبة العزلة، "إن الزمن الصناعي المتواصل، لا يدع على الإطلاق للإنسان المنعزل أن يواجه نفسه"[26].

وفي رواية الغريب "لألبير كامو"، يسجن "مورسو" في زنزانة منفردة بعد أن أقدم على قتل عربي في الجزائر المحتلة دون وجه حق ليحكم عليه بالإعدام، وفي انتظار تحديد موعد تنفيذه. يزيده خلو السجن من الكتب وفقدانه لعائلته وأصدقائه وحشة أخرى لعزلته، ليبدأ الزمن بالتمدد. وقد قدم الكاتب توصيفا دقيقا لما يجري داخل النفس البشرية وهي تحاول أن تجد من يخرجها من هذه الوحشة التي هي فيها، يقول: "ينتهي الإنسان إلى فقدان مفهوم الزمن ولكن ذلك لم يكن له أي معنى بالنسبة لي، لم أكن أدرك إلى أي حد يمكن أن تكون الأيام طويلة أو قصيرة في نفس الوقت، بلا شك كانت الأيام طويلة متباعدة حتى إن بعضها كان يطول، ليطغى على البعض الآخر ولم يعد لها أسماء، فالكلمات، أمس وغدا، كانت هي الكلمات الوحيدة التي بقيت تحمل معنى في نظري"[27]. ومع فقدان الأمل في إطلاق سراح "مورسو"، يبدأ مفهوم الزمن بالتلاشي وفقدان قيمته إلى أن يصير بلا معنى، وكلما تقدم السجين في عزلته إلا وقد صار غير قادر على تحديد الزمن الذي يعيش فيه.

ومع اشتداد عزلة "مورسو"، يحاول أن يبتكر حلا يجنبه الشعور بثقل الوقت وتمدده، يقول: «تعلمت كيف استعيد الذكريات...في ظرف عدة أسابيع صرت أستطيع قضاء ساعات طويلة دون ملل في تعداد الأشياء التي كانت موجودة بحجرتي، وكنت كلما فكرت أكثر، كلما عثرت في ذاكرتي على أشياء أخرى كانت مهملة أو منسية، وعند ذلك فهمت أن رجلا لم يعش مسجونا يوما واحدا، يمكنه دون عناء أن يعيش داخل السجن مائة عام»[28]، أدرك البطل أن استعادة الذكريات والعيش معها، يمكن أن يملأ وقت فراغه. فقد مكنت عملية التخييل واسترجاع الزمن الماضي للسجين مهربا من ملاقاة ذاته المضطربة، التي تخاف الفراغ. وبما أن "ألبير كامو" من رواد الفلسفة الوجودية، فهو قد تجاوز الزمن الحاضر، وعاد إلى الزمن الماضي ليستذكره. لأن الزمن في مفهومه موجود في مخيلة الفرد، يقول عبد المنعم خفاجي: "الزمان إما ماض أو مستقبل، فليس عندهم زمان حاضر، بل الحاضر هو الآن الموهوم المشترك بين الماضي والمستقبل"[29]. بالإضافة إلى توظيف استعادة الذكريات ودورها في مقاومة الزمن المتمدد عن العزلة، فإن البطل "مورسو" لم يكن يعنيه من أمر الزمن شيئا، يقول: "في الواقع لم أكن أجهل أن الموت في الثلاثين أو في السبعين لا يختلف كثيرا، حيث سيكون هناك وفي كلتا الحالتين رجال ونساء آخرون ...فطالما أننا سنموت فإن الكيفية والزمان لا يعينان الكثير"[30]. لا يخرج "كامو" عن فلسفة العبث التي ينتمي إليها، فهو على أي حال لا يهتم كثيرا لهذا الزمن الذي يكاد يطوقه وهو في عزلته.

5 ـ القراءة في مواجهة العزلة:

في قصة الرهان للكاتب "أنطون تشيكوف"يدور حديث بين مجموعة من المدعوين حول أيهما أفضل للإنسان؛ عقوبة الإعدام أم السجن المؤبد؟ فيفضل البعض منهم عقوبة السجن المؤبد على عقوبة الإعدام، ومنهم المحامي الشاب الذي أيد حكم السجن المؤبد على عقوبة الإعدام دون تردد، لاعتقاده أن التعلق بأهداب الحياة هو خير من ظلام اللحود[31]. غير أن أحد المصرفيين، فقد أعصابه لهذا الرأي والتفت إلى المحامي الشاب وراهنه بمليوني روبل، إن كان يستطيع البقاء في الزنزانة خمس سنوات[32]. فقبل المحامي التحدي.

وتقرر سجنه مدة خمس عشرة سنة في حديقة قصر المصرفي مع حراسة مشددة تحت سمعه، كما نص الاتفاق على أن يمنع السجين من تلقي الصحف والرسائل ورؤية الناس ناهيك عن سماع أصواتهم.

في العام الأول عانى المحامي كثيرا من مآسي الوحدة والملل، وفي العام الثاني اكتفى السجين بقراءة روائع الأدب العالمي، وفي منتصف العام السادس عكف على دراسة اللغات والفلسفة والتاريخ، وفي أربع سنوات قدم له المصرفي ما يقرب عن ستمائة مجلد، وفي السنة العاشرة عكف السجين على قراءة الكتب الدينية وتاريخ الأديان، وفي العامين الأخيرين انكب على قراءة كم هائل من الكتب في شتى الفنون.

وقبل أن تنتهي فترة خروج المحامي من السجن قرر الخروج قبل الموعد المتفق عليه، متخليا عن المكافأة المالية وتاركا رسالة للمصرفي، يخبره فيها أنه قد استفاد من عزلته وأنه قد اختزل في جمجته عبقرية الإنسان وحصاد فكره الفذ. وهو على يقين بأنه صار يفوق الآخرين علما وثقافة وذكاء وحكمة[33].

شكل العام الأول للمحامي مأساة بسبب أنه لم يقم بأي فعل يمكن أن يجنبه الملل ، غير أنه في الأعوام المتبقية من سجنه، عمل على تحويل سجنه إلى مكان مثالي، ليمضي معظم وقته في قراءة الكتب العلمية والأدبية. بعد أن كفاه المصرفي حاجته من الطعام والشراب، ووفر له المأوى وأنواع الكتب. إلا أنه افتقد إلى الحرية والحديث إلى الآخرين وقد أمكنه أن يستعيض ما فقده بالانتقال إلى جميع البلاد التي تمنى زيارتها، وذلك عن طريق قراءة الكتب، حيث اكتشف الصحراء والبحار والمحيطات والسهول والجبال دون أن ينتقل من مكانه، وقد مكنته الكتب أن يتحدث مع كبار المؤلفين والعقول المتميزة دون أن ينتقل إليهم وذلك من خلال أفكارهم. كانت الكتب بالنسبة إليه متعة وفائدة عظيمة، تعلم منها ما يحتاجه، يقول بوهوميل هرابال: "لا أستطيع التمييز تماما بين الأفكار التي تأتي مني أو من كتبي, هذا ما أبقاني منسجما مع نفسي ومع العالم حولي, لأنني عندما أقرأ, فأنا لا أقرأ حقاً، بل أرمي جملة جميلة في فمي وأمصها كالسكاكر أو أرشفها كشراب كحولي حلو, حتى تذوب الفكرة داخلي كالكحول, وتتغلغل في العقل والقلب, ثم تتدفق عبر الأوردة إلى جذر كل وعاء دموي"[34].

اندفع المحامي في قراءة الكتب غير مبال بالعزلة التي هو فيها، يقول شوبنهاور: "الحياة العقلية لا تقي صاحبها من ويلات الضجر فحسب، بل ومن عواقبه الوخيمة، كما تضعه بمنأى عن رفاق السوء وشتى المخاطر والخسائر والآلام التي قد تلم به، وهو على طريق بحثه عن السعادة الكاملة في حياته العملية"[35]. لقد تمكن المحامي من فتح حوار مع مؤلفي الكتب التي قرأها وخلّص نفسه من عواقب العزلة، كما أن شغف المعرفة جعله، يقبل على الكتب وكلما قرأ منها شيئا إلا وتاقت نفسه إلى المزيد، يقول برتراند رسل: "ثلاثة مشاعر، بسيطة لكنها غامرة بقوة، تحكمت في حياتي... منها شغف المعرفة. فقد تمنيت أن أفهم قلوب البشر. تمنيت أن أعرف لماذا تلمع النجوم. وحاولت أن أدرك القوة الفيثاغورية التي تسيطر فيها الأرقام على تدفق الأشياء"[36].

إن ما قام به المحامي، يشبه كثيرا عمل الأدباء والفلاسفة والعلماء وهم يضعون أنفسهم في عزلة تامة، متناسين الناس وحركة العالم وملتصقين بالورق، وقد يزورهم الألم أحيانا لما هم عليه، لكنهم يفرحون بما يحصّلونه

من معرفة، "إن العزلة هي نصيب الصفوة والألمعيين وقد يحزنهم ذلك بين الفنية والأخرى، غير أنهم لو خيروا بين العزلة ونقيضها اختاروا قطعا حياة العزلة الأقل شرورا على هذه الأرض"[37].

6 . خاتمة

في بداية البحث خصصت حيزا لتقديم نماذج عن عزلة الأدباء والفلاسفة، وقد تباينت نظرتهم لمفهوم العزلة، وذلك تبعا للوضعيات المختلفة التي يكون فيها الإنسان وحالته الفكرية والثقافية. وبالاعتماد على مجموعة من الروايات العربية والغربية، قمت بقراءة وتحليل مواقف أبطال هذه الروايات من العزلة، ثم تطرقت إلى عنصر الزمان داخل العزلة. وفي الأخير تناولت دور القراءة في التخفيف من وطأة العزلة وقد استخلصت النتائج التالية:

. أسهمت العزلة في صياغة المعرفة الإنسانية على مر التاريخ البشري.

ـ منحت العزلة المجتمع الشرقي المعرفة الروحية، فيما منحت الغرب المعرفة المادية، وإذا كان الشرق قد اهتم بالمعارف الروحية وغيب المعارف المادية، فإن الشرق والغرب كلاهما في حاجة إلى بعضهما البعض من أجل أن تكتمل الحضارة الإنسانية بشقيها المادي والروحي.

ـ تريح العزلة بال الفرد وتحرر روحه وعقله مما علق به وتسمح له بالعودة إلى ذاته. كما تزيد في انتباهه وتسمح له بالتفكير خارج الأطر المعروفة والمتفق عليها من قبل المجتمع.

ـ مهما اشتدت العزلة على الإنسان، إلا أنه قادر على إيجاد وسيلة تخرجه من قسوتها ومرارتها.

. يقوم الزمان بدور مهم في تجاوز أبطال الروايات لعزلتهم.

ـ تعد قراءة الكتب وسيلة هامة في الخروج من عزلة الإنسان بالإضافة إلى أنها تكسبه الثقافة والعلم والمعرفة ليواجه مشاكله الكثيرة.

ـ كلما ارتقى الإنسان في ثقافته وعلمه وأخلاقه، إلا ووجد نفسه تتوق إلى العزلة ليجد راحته فيها.

الهوامش:

[1] حنّة آرنت: الاخْتِلاء، والوِحْدة، والعُزلَة تر: نورة الخطيب /http//hekmah.org 2016/03/12

[2] أرتور شوبنهاور: فن العيش الحكيم، تر: عبد الله زاروا، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2018، ص17.

[3] بول أوستر: اختراع العزلة، تر: أحمد العلي، دار أثر للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2016، ص30.

[4] المرجع نفسه، ص50.

[5] وول سوينكا: مذكرات سجين، تر: نسيم مجلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2013، ص78.

[6] المرجع نفسه، ص32.

[7] إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، تر: عبد الوهاب الملوح، ط1، 2020، ص170.

[8] المرجع نفسه، ص66.

[9] أبو سليمان الخطابي البستي، العزلة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط2، 1990، ص238.

[10] أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مؤسسة هنداوي، مصر، دط، ص33.

[11] نيقولاي برديائيف: العزلة والمجتمع ، تر: فؤاد كامل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ص121.
[12] أبو بكر بن طفيل: حي بن يقظان، موفم للنشر، الجزائر، 1994، ص147.
[13] نيقولاي برديائيف: العزلة والمجتمع ، تر: فؤاد كامل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، ص115.
[14] أبو بكر بن طفيل: حي بن يقظان، ص146.
[15] ديفيد هنري ثورو: ولدن، تر: هالة صلاح الدين، دار العين للنشر، الإسكندرية، مصر، 2013، ص90.
[16] دنيال ديفوي: روبنسون كروزو، تر: كامل كيلاني، الجزائر تقرأ،الجزائر،ط1 ،2020، ص39.
[17] المصدر نفسه، ص44.
[18] المصدر نفسه، ص47.
[19] المصدر نفسه، ص52.
[20] المصدر نفسه، ص68.
[21] المصدر نفسه، ص68.
[22] أرتور شوبنهاور: فن العيش الحكيم، تر: عبد الله زاروا، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2018، ص39.
[23] دنيال ديفوي: روبنسون كروزو، ص69.
[24] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط15، 2018، ص22.
[25] دنيال ديفوي: روبنسن كروزو، ص60.
[26] مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط15، 2018، ص22.
[27] ألبير كامو: الغريب، دار لانتيقيت، بجاية، الجزائر، 2015ص92، ص93.
[28] المصدر نفسه، ص90، ص91.
[29] عبد المنعم الحنفي: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000، ص298.
[30] ألبير كامو: الغريب، ص127.
[31] حصة إبراهيم العطار: من روائع القصص العالمية، العبيكان للنشر، ط4، الرياض، السعودية، 2008، ص25.
[32] المصدر نفسه، ص26.
[33] المصدر نفسه، ص32.
[34] بوهوميل هرابال: عزلة صاخبة جدا، تر: منير عليمي، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ط1، 2017، ص11.
[35] أرتور شوبنهاور: فن العيش الحكيم، ص51.
[36] برتراند رسل: سيرتي الذاتية، تر: عبدالله الحافظ، فايز اسكندر، دار المعارف، مصر، ص7.
[37] أرتور شوبنهاور: فن العيش الحكيم، ص195.

قائمة المصادر والمراجع:

1 ـ ألبير كامو: الغريب، تر: محمد بوعلاق، دار لانتيقيت، بجاية، الجزائر، 2015.
2 ـ أرتور شوبنهاور: فن العيش الحكيم، تر: عبد الله زاروا، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2018.
3 ـ إميل سيوران: على مرتفعات اليأس، تر: عبد الوهاب الملوح، صفحة، السعودية، ط1، 2020،
4ــ برتراند رسل: سيرتي الذاتية، تر: عبدالله الحافظ، فايز اسكندر، دار المعارف، مصر.
5 ـ بوهوميل هرابال: عزلة صاخبة جدا، تر: منير عليمي، منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا، ط1، 2017.
6 ـ بول أوستر: اختراع العزلة، تر: أحمد العلي، دار أثر للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، 2016.
7 ـ أبو بكر بن طفيل: حي بن يقظان، موفم للنشر، الجزائر، 1994.

8 ـ حنّة آرنت: الاخْتِلاء، والوِحْدة، والعُزلَة تر: نورة الخطيب /http//hekmah.org 2016/03/12
9 ـ حصة إبراهيم العطار: من روائع القصص العالمية، العبيكان للنشر، ط4، الرياض، السعودية، 2008.
10 ـ أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، مؤسسة هنداوي، مصر، دط.
11 ـ ديفيد هنري ثورو: ولدن، تر: هالة صلاح الدين، دار العين للنشر، الإسكندرية، مصر، 2013.
12 ـ دنيال ديفوي: روبنسون كروزو، تر: كامل كيلاني، الجزائر تقرأ،الجزائر،ط1 ،2020.
13 ـ أبو سليمان الخطابي البستي، العزلة، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط2، 1990.
14 ـ مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، سورية، ط15، 2018.
15 ـ عبد المنعم الحنفي: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، ط3، 2000.
16 ـ نيقولاي برديائيف: العزلة والمجتمع ، تر: فؤاد كامل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر.
17 ـ وول سوينكا: مذكرات سجين، تر: نسيم مجلي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2013.